

عِيَالُ اللَّهِ

حكاية عربية في ثلاث لوحات

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد



عيال الله

حكاية عربية في ثلاث لوحات

مسرحية شعريّة

تأليف: نيقولاي غوميليوف

ترجمة: د. عبد الله عيسى

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

العنوان الأصلي للكتاب:

Дитя Аллаха Арабская сказка

الكاتب : Н. Гумилев

الناشر : мысль. Берлин 1922

المترجم: د. عبد الله عيسى

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراء المؤلف ومواقفه ولا تعبر
(بالضرورة) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

عيال الله: حكاية عربية في ثلاث لوحات / تأليف نيقولاوي غوميليوف؛ ترجمة
عبد الله عيسى. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢١ م. -
٩٧ ص؛ ٢٠ سم. (المشروع الوطني للترجمة. المسرح العالمي؛ ٥).

١- ١٩,١٧٢ غ و م ع ٢- العنوان ٣- غوميليوف ٤- عيسى
مكتبة الأسد

إلى روح د. علي الصالح
أنت الذي دلّني على عيال الله
في شتاء ١٩٩٣

نيقولاي غوميليوڤ

عيال الله

حكاية عربية

في ثلاث لوحات

مُقَدِّمَةٌ

نيقولاى غوميليوڤ الولاء للمصير التراجيديّ

لم يبتعد مصير الشاعر والمسرحيّ نيقولاى غوميليوڤ (١٨٨٦-١٩٢١) التراجيديّ عن المصائر التراجيديّة الأخرى التي ختمت حيوات شعراء روسيا الكبار، مثل ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)، وميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١)، اللذين قُتلا بمؤامرة من حاشية القيصر، وفقاً لبعض الروايات، أو مثل شعراء العهد السوفييتي الكبار مثل فلاديمير ماياكوفسكي (١٨٩٣-١٩٣٠)، وسيرغي يسينين (١٨٩٦-١٩٢٥)، على سبيل المثال، أو تلك التي صيِّرت جحيماً بسبب القمع والتهميش، مثل حياة الشاعرة آنا أخماتوفا زوج الشاعر نيقولاى غوميليوڤ، فقد أُعِدِمَ، رمياً بالرصاص ليلة السادس والعشرين من آب من عام ١٩٢١، ولم تكشف الوثائق الرسميّة بعد عن مكان إعدامه، أو قبره الذي ظلّ مجهولاً حتّى يومه. ويتّفق مؤرّخو سيرته، أنّ محاكمته كانت سريعة كقضاء حتمي، تماماً كعملية إعدامه، كما لو أنّ كلّ شيء قد أعدّ

مسبقاً، تماماً كقرار إعدامه أيضاً، الصادر في الرابع والعشرين من آب - أي قبل يوم وليلة من إعدامه - عن لجنة الطوارئ الروسية لمحاربة الثورة المضادة والتخريب في بيتروغراد.

ولم تشفع محاولات أصدقائه المؤثرين آنذاك مثل ميخائيل لوزينسكي ونيقولاي أوتسوب برفع التهمة عنه منذ اعتقل في الثالث من آب من العام نفسه بتهمة التورط بالمشاركة في مؤامرة منظمة تاغانسوف العسكرية في بيتروغراد، كما لم تنفع مكائد البلاشفة معه، بما كادوا له من إغراءات باستمالته لصفوفهم، فقد ظلّ وفياً لقسمه الذي قطعه بصفته ضابطاً لدى القيصر، ووفياً لولائه، ما دعا رجالاتهم للتحسّر على مصيره الآيل إلى إعدام مطبق لا محالة. ومهما يكن من أمر مؤرّخي الأدب وكاتبى سيرة الشاعر الذين اختلفوا بشأن تورّطه أو عدم تورّطه في هذه المؤامرة، إلا أنّهم يتفقون على أنّ مجرد إعدامه إدانة دامغة للعهد السوفيتي برمته، على الرغم من أنّ بعض المؤرّخين السوفييت حاولوا استقدام حجج ومزاعم مختلفة للتطهّر من خطيئة إعدامه المججلة، فقد ظلّت تهمة اشتراكه في تلك المؤامرة قائمة منذ لحظة إعدامه حتى عام ١٩٨٧، وقد رُوّجت لها، إضافة إلى الآلة الأيديولوجية السوفييتية، مجموعة من نخبة المبدعين الروس، بمن فيهم المهاجرون، ولا سيما فاليري شوبينسكي، فيما كانت فكرة عدم تورّطه في المؤامرة تلك تطل برأسها في بعض الأوساط الأدبية منذ ستينيات

القرن الماضي، لكنها تجلّت على رؤوس الأَشهاد بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩١، وما تزال رائجة حتّى الآن.

لكن في عام ١٩٩٢ - أي إبّان انهيار العهد السوفييتي، أُعلن عن أنّ القضية نفسها ملفّقة من لجنة الطوارئ الروسية لمحاربة الثورة المضادة والتخريب في بيتر غراد، وأُعيدت - إثر ذلك - المكانة لكلّ ضحاياها، بمن فيهم نيقولاي غوميليوف.

ولا شكّ أنّه كان من الممكن التكهّن بهذا المصير المأساويّ لنيقولاي غوميليوف لمجرد أنه ينحدر من سلالة النبلاء، ذلك أنّ منهم من تعرّض للقتل، أو للنفي، أو الهجرة الأبديّة عن الوطن، إبّان صعود البلاشفة إلى سدّة حكم روسيا دون أدنى رافةٍ بالعائلات النبيلة وإرثها وممتلكاتها وتقاليدها، ولا سيما إثر مقتل القيصر الروسي نيقولاي الثاني رومانوف وزوجه وعائلته، ومن كان يعمل في قصره لمحو آثار الجريمة.

لم يكن لأحدٍ - عرّف نيقولاي غوميليوف طفلاً، بجسده النحيل الضعيف، المسكون بآلام أمراض لا طاقة لتحملها، ولا سيما ذلك الصداق العنيف الذي استوطن رأسه حتى إنه لم يقدر معها على تحمّل أيّ نبرة ضوضاء أو أصوات مرتفعة - أن يتخيّل أنه نفسه ذلك الذي قدّم بلاغة البطولة؛ تلك التي أصبحت مثلاً في التاريخ الروسي، ومصدر اعتزاز لأجيال عدّة.

لكنّه، وكما تذكر زوجه الشاعرة آنا أحماتوفا في المجلد الثاني من كتابها «أعمال وأيام نيقولاي غوميليوف»، كتب بواكير أشعاره على شكل رباعيّات حملت اسم «نياغارا الحيّة» وهو في السادسة من عمره.

تضجّ نياغارا بالحياة

على مقربةٍ من بحيرةٍ دلّهي

وبأجنحةِ الحبّ لنياغارا

يخلقّ الزعماءُ كلّهم.

ولم يكن مرضه المزمن، المؤلم ذلك رحيماً بروحه، مما اضطره أن يهجر المدرسة في تسارسكوي سيلو خريف عام ١٨٩٤، وبعد بضعة أشهر فحسب من انتسابه إليها، لجأ إلى التعليم المنزليّ مبكراً، في حين حمّله قدره خريف عام ١٨٩٥، بما لم يكن لجسده أن يتحمّل من ألم، من تسارسكوي سيلو إلى بيتربورغ، عاصمة الثقافة والأدب، ومأوى كبار مبدعي روسيا، إذ استأجرت عائلته شقة في منزل تاجر، وهناك تمكّن نيقولاي غوميليوف بدعم من نويه من أن يسيطر على حالته الصحيّة العصيّة على الشفاء، ويعود إلى مقاعد الدراسة بعد عام من إقامته مع عائلته في المدينة الساحرة، لكنّ عام ١٩٠٠ لم يترك عائلة غوميليوف وشأنها، حيث أصيب الأخ الأكبر دم تري بالسل، فهجر نيقولاي المدينة التي بدأ يعثر فيها على طفولته جهة القوقاز بحثاً عن

هواء يلائم الرئتين المصابتين، مما دعاه للالتحاق بمقاعد الصف الرابع
وللمرة الثانية في تفليس، في حين يسّر له قدره في مطلع يناير في العام
الذي يليه أن يدخل مدرسة الرجال في تفليس نفسها. وهناك، نشر في
«منشور تفليس» قصيدته «أنا الذي هربت إلى الغابة من المدن» عام
١٩٠٢.

أنا الذي هربت إلى الغابة من المدن

من الناس إلى جوف الصحراء

أنا الآن

مهياً للصلاة،

والبكاء

كما لم أبك من قبل.

هأنذا وحدي،

الوحيد مع ذاتي

آن وقتي. آن كي أخلو لاستراحتي.

لا يرحم الضوء. الضوء ذاك أعمى

احتسى عقلي، واشتعل الصدر مني .

أنا الآثم المرعب، الشرير

أمدني الرب بالقوة، فأجهد عن نفسي.

أنا الذي أحببت الحقيقة والناس لكنتني وطأت الأضنام كلها.

وإذ يعود في العام التالي إلى تساركوي سيلو، ملتحقاً بمدرستها، يهدد بالطرد منها، فقد كان سيئاً في دراسته، إلا أن المدير يصرّ على بقاءه قائلاً: «كل هذا صحيح، لكنّه يكتب الشعر»، ويجتاز فعلاً الامتحانات النهائية ربيع عام ١٩٠٦، لكنه قبل هذا بعام ينشر له والداه على حسابهما الشخصي مجموعته الشعرية الأولى «طريق الفاتحين».

ومن المؤكد أنّ الشاعر الشهير فاليري بريوسوف منح هذه المجموعة مكانة استثنائية، إذ خصّها بمراجعة خاصة، اختتمها بالجملة التالية: «نعتمد أن هذه المجموعة طريق فاتح جديد، وأننا سوف نشهد انتصاراته ومآثره في المستقبل». وإثر هذا، توالت مراسلات غوميليوف وبريوسوف، وظل غوميليوف يعدّه أستاذه النبيل، في حين بقي بريوسوف يعامله برعاية أبوية. وسوف تظل آثار بريوسوف مقيمة في قصائد كثيرة لغوميليوف، لعل أشهرها «الكمّان الساحر» المهداة إليه.

أيّها الصبيّ الحبيب!

هكذا أنت مغتبط، تماماً مثل ابتسامتك الوهاجة.

لا تسأل عن هذه السعادة، التي تسمّم العوالم

أنت لا تعرف، لا تعرف أنت ما يعني هذا الكمان
ماذا يعني الرعب المظلم للتمرّن على البادئ.
ذاك الذي أخذها، ذات يوم، باليدين القادرتين،
ذاك الذي اندثر الضوء الهادئ من نظرتِه إلى أبدٍ.
كم من الآلام الوهاجة،
كم من العذاباتِ آناء الليل،
تنواري في الموسيقى العذبة، مثل مجرى منتصفِ النهارِ.
ولزاماً أن نغني أبدأً،
وينبغي أن نبكي بهذه الأوتار لرنين هذه الأوتار.
أبدأً على القوسِ المترنّح أن يهزمننا، وأن يدور بنا
تحت الشمس، وتحت عاصفة الثلج،
تحت موجة الشاطئ التي ابيضّت.
وعندما يتوهج الغرب، ويحترق الشرقُ.
سوف يأخذك الإنهاك، ويمسك التمهّلُ
ولن يكون بمقدورك الصراخ، أو التحرك، أو التنفّس،
ولرمشة عينٍ سوف ينقطع الغناء،
وفجأةً

الذئبُ الهائجُ، الذئبُ في نوبةِ التعطشِ للدماءِ
سوفَ تهوي بأسنانها على حنجرتك،
وتغرزُ مخالِبها في الصدر.
آنذاك ستدركُ أنّ كل شيء سوف يهزأ مما غنّيتُ
وسوف يحدّق في العيونِ خوفَ تمهّلٍ، لكنّه مستبدّ،
وسوف يطوي الجسدَ البردُ المميّتُ مثل رداءٍ من قماشٍ
وسوف تصابُ العروسُ بالنشيجِ،
وسوف يتأمّلُ الصديقُ المتأخّرُ بما سوف يحدثُ.
فامضِ أيّها الصبيّ، لن تجدَ البهجةَ هنا، ولا الكنزَ
لكنّني أرى أنّك تضحكُ. عيناك شعاعانِ.
خُصّ ذاتكُ بالكمانِ الساحرِ،
وانظرُ في عيونِ الوحوشِ،
وليكنْ قتلُك موتاً مجيداً،
أوحشَ من ميتةِ عازفِ الكمانِ.

وبعد أن يتّم نيقولاوي غوميليوف المرحلة الدراسية يغادر روسيا
للانتساب إلى جامعة السوربون في فرنسا، لتتفتح مداركه على طاقات
إبداعية جديدة، ولا سيما أن الطبقة النبيلة الروسية آنذاك كانت على
تواصل عميق مع اللغة والثقافة الفرنسييتين.

شكّلت الحياة في عاصمة الفنّ والجمال باريس منذ عام ١٩٠٦، كما شكّلت المحاضرات المتعمّقة حول الأدب والإبداع في جامعة السوربون، مدخلاً جديداً لفهم العالم الإبداعي وتلمس تحولات المحيط المعاش بما يحمله من إيقاعات وانكسارات وحالات متلونة بنكهة المصير الخصوصي للذات المبدعة.

لطالما لجأ نيقولا في هذه الفترة إلى الفنّ التشكيلي بصفتها أداةً إبداعية جديدة تعبّر عن عوالمه الداخليّة، إضافة إلى الشعر، وكأنّ القصيدة لم تعد كافية للتعبير عن المدارات المتعددة لروحه، واعتاد زيارة المعارض، والسفر، ولا سيما إلى إيطاليا العريقة بأدائها وفنونها الموغلة في الجمال المعنق، وتعزّف إلى كبار الشعراء والمبدعين الفرنسيين والروس المهاجرين، وكذلك تواصلت مراسلاته مع الشاعر الشهير فاليري بربوسوف، إلا أن لقاءه مع الشاعرة الشابّة إليزابيتا دميتريفا سيترك أثراً عميقاً في حياته، ويقود إلى ما هو أشبه بمستقرّ قاتل في مصيره.

وهناك، في باريس أصدر مجلة «سيربوس» الأدبية، التي ستظهر فيها قصائد الشاعرة آنا أخماتوفا أول مرة إلى النور.

وإذ جهد بربوسوف بالطلب من شعراء مشهورين مثل ميريكوفسكي، وغيببوس، وبيلي أن يولوا الشاعر الموهوب غوميليوف عناية خاصّة، إلا أنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى ذلك كما يليق، الأمر الذي دفع غوميليوف للانتقام منهم، بأن أرسل إليهم قصيدة «المخنث» ، التي لاقت صدى

كبيراً في ذواتهم ، فكالوا لها ولكاتبها مديحاً منقطع النظير، واندفع الشاعران ميريجكوفسكي وغيبوس للتعبير عن رغبتهما بقاء شاعر هذه القصيدة.

عاد غوميليوف في نيسان ١٩٠٧ إلى روسيا للخضوع لفحوصات لجنة الخدمة العسكرية، والتقى أستاذه بريوسوف وحببته أنا غورينكو، إلا أنّ مكوثه لم يدم طويلاً ، فغادر إلى باريس التي وصلها نهاية تموز من العام نفسه مروراً بالقسطنطينية، وبلاد الشام أول مرّة، كما يذكر في إحدى رسائله إلى بريوسوف، إذ يخلص إلى أنّه لا يعرف كيف أو لماذا انتهى به المطاف في باريس، وهو الذي ما يزال تحت طائلة علاقة حبّ عابرة عاشها في القسطنطينية مع يونانية حسناء.

ومع حلول عام ١٩٠٨ يصدر غوميليوف مجموعته الشعرية «أزهار رومانسية»، التي تصدّى الشاعر المعروف سيرغي ماكوفسكي للكتابة عنها بالقول: «بدت لي قصائد المجموعة ضعيفة حتى بالنسبة إلى شاعر مبتدئ، لكنّ المأساوية التي ملأتها صعقتني».

بعد أن يحصل على المكافأة المالية عن إصدار مجموعته الشعرية هذه، إضافة إلى ما اقتصده من أموال أرسلها والداه لاستكمال تحصيله العلمي، ينطلق في رحلته الثانية، إذ يزور تركيا واليونان ومصر أيضاً التي تركت فيه أثراً كبيراً، والتي كتب عنها قصيدة الأزيكية، ونشرها عام ١٩١٧:

يا للغرابية!

عشرٌ من السنواتِ انقضتُ تماماً
منذ أن رأيتُ بعيني الأزيكِيَّةَ.
حديقةُ القاهرةِ الكبيرةُ، بالقمرِ مكتملاً
كما في احتفالٍ، اشتعلتُ بالنورِ ذاكَ المساءَ.
وكما امرأةً
وكما لو أن امرأةً مُسَّتْ بالمشقةِ،
أعيتُ جسدي أثقالِي
لا هواءُ البحرِ المالحِ، البكرِ،
ولا ضجيجُ الأسواقِ الساحرةِ، الغريبةِ،
يمكنُ أن تُسكِّنَ روعي.
آنذاكُ،
صليتُ للربِّ من أجلِ هذا الموتِ،
وكم تهيأتُ كي يدنو إليّ.
الحديقةُ هذه،
تشبه البساتينَ المقدَّسةَ
تلكَ التي خصَّصها الخلاقُ لأيامِ الصبا.
هناكُ،

أرختِ النخلاتُ السعوفَ الرقيقةَ
بما يشبهُ صبايا يهبطُ الربُّ إليهنَّ
وعلى سفوحِ التلالِ
كما الكهنة - الأنبياء
تتزاحمُ أشجارُ الجميزِ المعمرة
والشلالُ

مثلَ وحيدِ القرنِ الذي شبَّ على قدميه، ابيضَّ
في جوفِ العتماتِ
وفراشاتُ الليلِ تحلّقُ
بينَ الزهورِ، أعلى
أو بينِ النجماتِ
كم كانتِ النجومُ أدنى
مثلَ ثمارِ البرباريسِ الناضجةِ
وأذكرُ، أذكرُ

أنني صحتُ: «أعلى كثيراً من الآلامِ
وأعمقَ جدًّا من الموتِ
هذي «الحياة، يا إلهي! تقبلُ مني

نَدْرِي الَّذِي جِئْتُ بِهِ طَوْعاً وَزُلْفَى:

بِمَا سَوْفَ يَحْدُثُ،

بِأَيِّ مِنَ الْحَزَنِ وَالذَّلِّ

سَوْفَ يَهْوِي عَلَى قَدْرَتِي، لَيْسَ قَبْلَ ذَاكَ

سَوْفَ أَفَكَّرَ مَا اسْتَطَعْتُ بِمَوْتِي الْبَسِيطِ،

لَيْسَ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ

أَنْ أَدْخُلُ ثَانِيَةَ اللَّيْلَةِ الْمُقَمَّرَةَ نَفْسَهَا

تَحْتَ أَشْجَارِ نَخِيلٍ وَجَمِيمِ الْأَزْبَكِيَّةِ».

يا للغرابة!

عَشْرٌ مِنَ السَّنَوَاتِ انْقَضَتْ تَمَاماً

وَلَيْسَ بِي حَوْلٌ أَنْ أَكْفَّ عَنْ أَنْ أَفَكَّرَ

بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ تِلْكَ،

وَالْجَمِيمِ،

وَالشَّلَالِ

ذَاكَ الَّذِي ابْيَضَّ، مِثْلَ وَحِيدِ الْقَرْنِ.

وَعَلَى حِينِ فَجْأَةٍ، تَلَفَّتْ حَوْلِي. وَآتَى سَمِعْتُ

فِي ظَنِينِ الرِّيَّاحِ، فِي ضَجِيحِ النَّهْرِ الْبَعِيدِ،

وفي هداةِ الليالي الموحشةِ
كلمةَ السرِّ: الأزيكية.

نعم. عشرٌ من السنواتِ فحسب.

أيها المتجولُ المكفهرُ

عليّ أن أشدَّ الرحالَ من جديدٍ

ينبغي أن أرى البحرَ ذاكَ،

والغيمةِ تلكَ،

والوجوهَ الأخرى تلكَ.

كلّ شيءٍ، لم يعدْ يغويني أيّ شيءٍ.

عليّ أن ألجّ الحديقةَ تلكَ، وأكرّرَ النذرَ ذاكَ

أو أقولَ إنني أدبْتُ حقّه

وإنني الآن حرٌّ تماماً، كما لم أكنُ من قبلُ.

ولأنّ رحلات، أو بعثات، غوميليوف الاستكشافيةِ إلى شرق وشمال
شرق إفريقيا تعدّدت، فقد عدّ فيما بعد أحد أبرز المختصّين أو
الباحثين في شؤونها، ولا سيما أنه استطاع جلب مجموعة غنيّة من
التحف والآثار إلى متحف الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا في سان
بترسبورغ. لكنّ مؤرّخي سيرته ودارسي آدابه لم يعثروا على تفاصيل

وافية حول رحلاته ومغامراته تلك، فيما يتفقون أن خياله تعلق بإفريقيا، وأهمته مآثر الضباط الروس المتطوعين في الحبشة كثيراً من النصوص الشعرية.

كأنّ القدر ابتسم لغوميلوف مطلع عام ١٩٠٩، كما ظنّ الشاعر ومعاصروه، إذ أصدر مع الشاعر سيرغي ماكوفسكي مجلة مصوّرة متخصصة بقضايا المسرح والفن التشكيليّ والموسيقا والأدب، أطلق عليها اسم «أبوللو»، وترأس قسم الأدب والنقد فيها.

لكنّ كاد ربيع ذلك العام أن يكون مقتلة له، ذلك أنّ قدره يقوده مرة أخرى للقاء الشاعرة إليزافيتا ديمتروفا التي ارتبط معها بعلاقة غرامية، فيطلب يدها، لكنها تفضّل عليه شاعراً آخر يقاسمه العمل في مجلة «أبوللو»، وهو ماكسيميليان فولوشين، فانهال غوميلوف عليه تحت وطأة الحنق الغلاب بكيل أوصاف لا تليق، وكلام كيدٍ على إليزافيتا، مما حدا بفولوشين أن يردّ له فعلته بإهانات على رؤوس الأشهاد، جرياً على عادة تلك الأيام، وفي مثل هذه المواقف، اتفقنا على خوض المباراة، وسطا خبرهما على صفحات الدوريات وتصدّر الأخبار والأقويل، لكنّ الشاعرين يخطئان الهدف، ويظنان على قيد الحياة، وتبقى المباراة التي ضمّتهما في ٢٢ نوفمبر ١٩٠٩ حدثاً يتنفس كثيرون معه الصعداء .

ومع صدور مجموعته «اللؤلؤ» عام ١٩١٠، التي ضمَّ إليها مجموعته «زهور رومانسيّة»، واحتفى بها بالنقد والإشادة كبار الشعراء والنقاد، مثل فاليري بيريسوف وفيتشيسلاف إيفانوف وإيناكيتي أننينسكي، تبدأ شهرة غوميليف بالصعود إلى مصاف الشعراء المؤثرين، وفي العام نفسه، وبعد تردّد ثلاث سنين، يقترن الشاعر بالشاعرة آنا أخماتوفا، وبإسهام فعّال منه، إلى جانب آنا أخماتوفا، والشاعر أوسيب ماندلشتام، وسواهما، يعلن غوميليف، عام ١٩١١، عن تأسيس جماعة «ورشة الشعراء» التي أريد منها أن تكون مخرجاً للشعر من أزمته التي ارتبطت، وفق تصوراتهم، بالرمزية، وفي هذه الورشة أُكِّد أن الشعر حرفة، وقُسم الشعراء إلى نقباء ومدربين لتبادل الخبرات والآراء، لكنّه في العام الذي يليه، أي عام ١٩١٢، يعلن عن نشوء حركة فنيّة جديدة أسماها «الأكمبزم»، التي ضمّت شعراء «ورشة الشعراء» أيضاً، وكما تجلّى في بيان هذه الحركة فإنها تعنى بالماديّة، وموضوعيّة الأفكار والصور ودقّة الكلام الشعريّ، وقد صاحب انطلاقتها عواصف من الرؤى والمواقف، بين مؤيّد ومعارض، لكنهم جلّها تعاطوا معها بتصورات سلبية. أسست الحركة دار نشر خاصة بها حملت اسم «هايبروري»، المستوحى من الأساطير الإغريقيّة.

وفي الفترة نفسها التحق غوميليف بمعهد تاريخ وفتح اللغة، ليدرس الشعر الفرنسيّ القديم، كما يشهد ذلك العام صدور مجموعته الشعريّة «سما غريبة» التي احتفظت لنفسها بأغاني قصيدته الشهيرة «اكتشاف

أمريكا» الأولى والثانية والثالثة. تلد له أنا أحماتوفا، في الأول من تشرين الثاني من العام نفسه، ابنهما ليف الذي سيصبح أحد أهم فلاسفة ومؤرخي وعلماء روسيا والاتحاد السوفييتي.

لم يذكر شيء كثير أو دقيق بشأن السؤال الذي قاد غوميلويف إلى أن يقرّر السفر في رحلات جديدة إلى إفريقيا، ليعود مع بدايات نذر الحرب العالمية الأولى ليعيش حياة بوهيمية، كاد الضجر بسببها أن يقتله. كما تعطلّ العمل الأدبي في ورشة الشعراء، وانطفأت جمرة الحركة الأدبية الأذربيجية ودار النشر التي ولدت معها، وتعصف المشاكل بعلاقته مع زوجه أنا أحماتوفا.

وفي مطلع آب، وقد كان سعيير الحرب العالمية الأولى يعمّ العالم، تطوّع نيقولايف غوميلويف في الجيش، وكان يمكن أسوة بشعراء عصره أن يكتفي بكتابة الشعر عنها، لكنّه يذهب إلى الجبهة، بصحبة أخيه ديمتري الذي التحق بالخدمة العسكرية، الذي فأصيب في هذه الحرب.

يتمّ ترفيع غوميلويف إلى ضابط صفّ في يناير من عام ١٩١٥ تقديراً لمآثره، لكنّه بعد شهر يصاب بنزلة برد حادة، يضطر معها لمغادرة الجبهة، للعلاج شهراً كاملاً في بيتروغراد، وما أن يستعيد صحته حتّى يقاد إلى الجبهة مجدّداً.

وفي غمرة حمأة الحرب عام ١٩١٥ يُظهر غوميليوف شجاعة وجسارة منقطعتي النظير، ليحصل إثرها على صليب القديس غيورغي من الدرجة الثانية، الذي شكّل له مصدر اعتزاز وفخر كبيرين. لكنّ آتًا أخماتوفا تعاطت مع الأمر ببعض من التشكك والتهكّم في آن، كما كتبت لابنهما ليف:

نادرًا ما تطيرُ الأنبياءُ

إلى رواق بيتنا.

أهدوا صليباً أبيضَ

لأبيك.

لكنّ غوميليوف يواصل معاركه بصمود وبأس شديدين ليحصل في كانون الأول من العام نفسه على شارة التميّز العسكريّ لوسام القديس غيورغي من الدرجة الثالثة، كما أنه أرّخ بالشعر للمعارك التي خاضها ولمشاعره تجاه الخراب في قصائد «جعبة» التي ظهرت عام ١٩١٦.

وإذ يعود في الشهر نفسه إلى روسيا يُستقبل بصفته بطلاً قومياً، وفي آذار ١٩١٦، يحصل على رتبة ضابط، وتبدأ مرحلة جديدة من حياته مفتوحة على مغامرات المعارك والتنقّلات، وكذلك الرحلات تلك التي يترك بعضها في ذاته فسحة للتأمّل والإبداع، حتّى نهاية عام ١٩١٧.

وفي أثناء تنقلاته العسكريّة، أو في خدمة الدولة الروسيّة، تعمّ ذاته سعادة عارمة، إذ يلتقي في لندن، في العام نفسه، بالشاعر جيلبرت تشيسترتون والكاتب غلبرت كيث تشيسترتون، فيما يتملّك روحه حبّ طاغٍ للحسناء إيلينا كارولوفنا، التي اجتمع فيها الدمان الروسيّ والفرنسيّ، ويهديها مجموعة قصائد «إلى النجمة الزرقاء»، والتي نقتطف منها:

من كلّ باقات السيرين كاملةً
بقيت لي واحدة فحسب. واحدة.
أنا الذي، آناء الليل
أفكر وحدي بإيلينا،
ليوهنّ الجسدُ منّي أطرافَ النهار.
وتهياً لي، كلّ شيء
هذه الأرضُ العزيزة تُمحي
في الزبدِ الأبيضِ،
وينمو السيرينُ النديّ
خلفَ مؤخّرة السفينةِ المهيبّة.
وخَيْلَ لي
خلفَ السماءِ التي اشتعلتْ بالنارِ

تفكّر بي،
الحسنا
بعيني المَهَا
الحلم، حلمي المُشتهى.
مثل كرهٍ يلهو بها الطفلُ
يقفزُ قلبي.
أنا الذي وثقتُ بالسفينةِ،
كما يؤمنُ أخُّ بأخيه،
لأنه ليس لي أن أفعلَ غير هذا.
ليس لي سوى هذا.
أحبّها.

وفي عام ١٩١٨، يعود إلى روسيا التي أصبحت روسيا السوفيتية. وفي هذه الآونة ينشر مجموعة شعرية أسماها «الموقد»، والملحمة الشعرية «ميك» التي استوحاها من رحلاته ومشاهداته في إفريقيا، وكذلك بدأ بكتابة مسرحيته الشعرية «أبناء الله» التي استوحاها من تأثره بإرث الثقافتين والأدبين العربي والإسلامي، ولا سيما الصوفي، حتى إنه وصفها بأنها «حكاية عربية من ثلاث لوحات»، وعلى الرغم من أن المسرحية تحفل بالروح الشعرية على حساب

الفعل الدرامي، إلا أنها تُعدُّ من أهم الآثار الأدبية الفريدة في الأدبين الروسي والإنساني، ذلك أنها تشكّل إعلاناً للانتصار للحب الكبير، ذلك الحب الذي تبحث عنه بيرري، والذي يفوز كثير من الشخصوس المصابة بمتاع الغرور، أو المزدنية أفنعة المجد الزائف العابر، أو المنازة للغة الجسد بحثاً عن متعة لا روح فيها، بل تنتصر به روح الشاعر حافظ التائفة للتوحد بروح الحبيب كي تتجلى الحياة بأنصع صورها.

على الرغم من أن علاقته مع زوجه أنا أخماتوفا كانت شبه منقطعة تماماً، لكنهما لم ينفصلا قبل الخامس من آب هذا العام، لاستحالة الزواج مرة ثانية بعد الطلاق قبل قيام الثورة البلشفية في تشرين الأول عام ١٩١٧، وبعد ثلاثة أيام فحسب يقترن نيقولاي غوميليوف بآنا إنغيلغيرت، ابنة المؤرخ والناقد الأدبي المعروف تلك الأيام نيقولاي إنغيلغيرت الذي كان يعيش حياة اعتيادية في الفترة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠، مكتفياً بإلقاء محاضرات في معهد «الكلمة الحية».

ومع حلول عام ١٩٢٠ يُعلن عن تشكيل فرع بتروغراد لشعراء روسيا، فينتسب الشاعر إليه. كان الشاعر الكبير ألكسندر بلوك قد أُنتخب رئيساً له، لكن مؤيدي البلاشفة بقيادة بافلوفيتش هم الذين كانوا يقودون أعماله ويرسمون مستقبله.

وتمسكاً بحجة أن النصاب القانوني لم يكن مكتملاً في أثناء الانتخابات، دعا هؤلاء لإعادة الانتخابات بدعوى أن هذا الأمر ما هو

إلا إجراء شكليّ عاديّ. وعلى غير المتوقع يفوز بها نيقولاوي غوميليوف بفارق صوت واحد، بعد أن رُشِح بصورة مفاجئة. كان مكسيم غوركي نفسه من أكثر الأعضاء نشاطاً في هذا الفرع.

ولم ينته عام ١٩٢١ حتى نشر مجموعة «الخيمة» المستوحاة من الأثر الإفريقيّ الذي ظلّ عميقاً في ذاته الشاعرة، ومجموعة «عمود النار» التي تعدّ من أكثر مجموعاته الشعريّة نضجاً فنياً وتأثيراً في الحركة الشعريّة.

وبقي منذ ربيع العام نفسه يقود حركة «أصوات الأصداف» إذ ألقى ندوات عن الشعر، وتبادل الخبرة وأسئلة المختبر الشعريّ مع الشعراء الشباب.

لم يكن غوميليوف، أسوة بشعراء ومبدعين معاصرين، يخفي إيمانه بالربّ، أو يصمت تصوراتهِ الروحيّة، و كذلك لم يصمت عن التعبير عن آرائهِ السياسيّة، مما شكل حالة اصطدام صارخة بالأيديولوجية السوفييتية، حتّى إنه كان يرسم الصليب على صدره في كل مرّة يمرّ بها أمام كنيسة وعلى رؤوس الأشهاد. كما أنّه ردّ، في إحدى ندواته، على سؤال أحد المندسّين للإيقاع به حول موقفه الأيديولوجيّ، فأجاب دون لبس أو خوف: «أنا مقتنع تماماً بالحكم القيصريّ». ولعلّ هذا أيضاً كان أحد الدوافع الأساسيّة لاعتقاله بتلك التهمة، وإعدامه.

الشخصيات :

الدرويش .

بيري .

الشاب .

العبد .

البدوي .

إسكندر .

خليفة .

المنجم .

القاضي .

الشيخ .

ابن الخليفة .

القرصان .

العبد الخصي الأول .

العبد الخصي الثاني .

سندباد .

المنادي.

حافظ.

العنقاء.

ملك الموت.

وحيد القرن.

ثلاثة أحصنة.

العجوز.

جمال.

طيور.

عقبان.

فهود.

اللوحة الأولى

صحراء. غروب الشمس

الدرويش : (يصلّي)

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

فَاطِرَ الشَّمْسِ تَسْعَى فِي أَفْلَاقِهَا

صَيْفًا شِتَاءً،

وَفِي ظُلُمَاتِ اللَّيَالِي،

هَادِي الْكَوَاكِبِ وَالشَّهَبِ صِرَاطُهَا.

إِذْ يَجْرِي بِالنُّورِ دَرْبُ النُّجْمِ

إِلَى الْقَوْسِ الرَّشِيقِ

عَاتِقِ الْجَدِيِّ

وَالْحَمَلِ وَالثَّوْرِ السَّمِينِ!

عَظِيمِ أَنْتَ، يَا اللَّهُ

خَالِقَ الْبَرِّ

وَالْمَحِيطِ الَّذِي يَسِيحُ الْأَرْضَ،

لَمْ تَغْوِ الْفِتْنَةَ رُوحِي الْأَمَّارَةَ،

إِنِّي عَتِيُّ الْكَبِيرِ، الْفَقِيرُ إِلَيْكَ،

لِاجَاةِ لِي، وَلَا حَوْلَ،

لَكُنِّي أَحَبَّكَ يَا اللَّهُ!

نَزَّهَنِي حَبَّكَ

عَنْ مَتَاعِ هَذَا الْعَالَمِ الْغَارِقِ بِالْخَطَايَا.

بيري : (تدخلُ بيري)

أَنْتِ. أَيُّهَا الدَّرْوِيشُ.

هَلْ أَنْتِ أَوَّلُ مُعْتَنِقِي دِينِنَا؟

أَنْتِ مَنْ يَنْشُرُ الْحِكْمَةَ مِثْلَ شَدَى الْأَزْهَارِ؟

الدرويش : وَأَنْتِ، مَنْ تَكُونِينَ يَا صَبِيَّةُ؟

بيري : أَنَا بَيْرِي.

الدرويش : أَيُّهَا السَّمَاوِيَّةُ،

مِنْ أَيْنَ أَنْتِ؟

بيري : أَنَا. أَنَا الَّتِي، حِينَ كُنْتُ أَمْخُرُ السَّمَاءَ،

بِخَفَقِ الطَّيُورِ،

خَلْفَ أَقْصَى الْكَوَاكِبِ

عَثَرْتُ عَلَى حَدْوَةِ الْبُرَاقِ

ذَاكَ الَّذِي مَلَكَ مُحَمَّدٌ نَاصِيَتَهُ.

الدرويش : لذلك سألتُ قديمك،

ولتكن حياتك فيأضة بالنور .

بيري : وأنا التي،

بفيض وفاء أمين،

أعدتُ الحذوة الذهبية لله.

وقلتُ: أيها الباري!

«أنا، الكنود،

أصلي في حضرة قديمك

دعني أهبط إلى بني آدم،

فأغدو عشيقاً أحسنهم».

فأعتقني،

ولئلا أقترف الخطايا،

دلني نجم سعدي إلى حكمتك الوثقى.

فالسّموات السبع كلها،

والكون،

بأبعاده الأربعة،

في مرمى بصيرتك.

فدلني

بِمَنْ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ يَعْتَصِمُ مَصِيرِي؟

الدرويش : يا بنيتي،

لا تَطْلُبِي امْتِحَانَ حِكْمَتِي
وَأَنَا الَّذِي أَسْلَمْتُ رُوحِي لِلسَّمَاءِ،
أَجْرِي فَأَدُلُّ أَفْتَدَةَ التَّائِهِينَ.
لَكِنِّي،

يا أُمَّةَ الرَّحْمَنِ

- تَبَارَكَ وَجْهُهُ الْوَضَاءُ -

سَأَعْطِيكَ وَحِيدَ الْقَرْنِ الْأَبْيَضِ
وَوَخَاتِمَ سُلَيْمَانَ،
إِثْمَهُمَا فَاكِهَةٌ صَلَوَاتِي.

حُرْثُهُمَا مَعَ مَبْرَغِ الْبَدْرِ الْجَدِيدِ،
مُمَعِنًا فِي الْبَلُورِ السَّحْرِيِّ،
أَجْرَ مَا زَيْنَتْ لِي وَسَاوِسِي.
وَسِيْبِقِي وَحِيدُ الْقَرْنِ،

بِصَفَائِهِ السَّمَاوِيِّ،

عَلَى طَاعَةِ الْعِذْرَاءِ الطَّاهِرَةِ،
وَحَشًّا غَضُوبًا

لِمَنْ لَا يَلِيقُ بِكُلِّ هَذَا الْجَمَالِ .
أَمَّا الْخَاتَمُ فَطَوَّقِي بِهِ ،
بِبِرْكَاتِ اللَّهِ ،
إِصْبَعٍ مِنْ تَرْقِيْنٍ لَهُ .
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَذَاكَ ،
فَهَذَا سَوْفَ يَعْنِي
أَنْ ظَلَّأَ آخَرَ سَوْفَ يَعْوِي فِي الْجَحِيمِ .
أَمَّا الْآنَ ، فَوَدَاعًا
وَلَكِنْ اعْلَمِي أَنَّنِي سَابِقِي فِي كُلِّ أَرْضٍ
سَعَادَتِكَ الْآتِيَةِ .

بيري : أَجْزَلْتُ ، أَيُّهَا الْأَبُ ، بَعْطَايَاكَ ،
وَلَنْ أَنْسَى فَيْضَ فَضْلِكَ .

(يُسَلِّمُ الدَّرُوِيْشُ خَاتَمَ سَلِيْمَانَ ، وَوَحِيْدَ الْقَرْنِ ، وَيَبْتَعِدُ .
تَمَّرٌ جَمَالٌ . شَابٌ يَمْتَطِي أَحَدَهَا ، وَثَمَّةٌ عَبْدٌ يَسِيرُ إِلَى جَانِبِهِ) .

الشاب : كَمْ أَمَقْتُ الصَّحْرَاءَ .
أَبْعُضُ الرَّمْلَ وَالسَّرَابَ ،
وَالْأَعْشَابَ .

العبد : أترى الصبيّة تلك؟

الشاب : أرى.

أوقفوا القافلة،

واجلبوا عناقيد العنبِ

والشراب،

والتّمَرَ المُشربَ بالعسلِ.

أيتها الحسناء،

كنتُ على نيّةِ المسيرِ إلى بغدادَ

لكن،

وكما ترى،

لنُ أسيرَ بعدَ هذا.

بيري : هل أنت خيرُ أبناءِ آدمَ؟

الشاب : طبعاً. للنعماءِ والحبِّ.

ارمي نظرةً،

دونما حياةٍ،

على شفّتيّ القرمزيّتينِ.

بيري : أأنتَ ملكٌ؟

الشاب : للصبايا فحسب.

بيري : أنت محاربٌ؟

الشاب : نعم.

عندما أتصارعُ مع قربةِ الخمرِ،

بيري : ربما أنت مُغنٌّ؟

الشاب : أقسمُ إنني أستحقُّ

أن أسمى مغنياً أيضاً.

ذاك أن عودَ ابنةِ الأميرِ،

ونايِ الراعيةِ الغصّةِ،

وقيثاراتِ الإغريقيّاتِ الذهبيّةِ

تصدحُ مرتعشةً بي.

ومن دُورِ البصرةِ

حتّى مضاربِ بني عالم

نبيّني

لنّ تعثُرِي على حريمِ

لا يأخذهنّ الحنينُ

إلى ليلةِ عشقِ عذبةٍ معي.

وأنا العارفُ بنكهةِ ذاك الدُّوارِ

يُهدي - بسحرِ التَّوْحُدِ - لذتَهُ، إلى المحبِّين.

وأنا العارفُ بكلامِ أرقّ من النسائم
في الزقاقِ الوردِيّ،
وأشهى من خريِرِ الينابيعِ،
وغناءِ البلايلِ.
يداكِ العاجزتانِ،
وعيناكِ المذعورتانِ،
كمُقلَّتِي ظبيّ،

تُلوّبانِ عن عذابِ مُسْتَطابِ،
فتتشدانِ السكينةَ وهدأةَ الليلِ.

العبد : أتأمرُ أن أُعدّ السريرَ؟

بيري : الحبّ. هذا هو الحبّ!

الشاب : قلّبي يا حبيبةً، ثمّ ماذا؟

(ثم مُلتفتاً إلى العبد)

أيّها المعتوه!

هيّء، كما يليقُ، خِدْرَةَ النومِ.

بيري : كيف أطفئُ نؤاباتِ الرعشةِ في قلبي،

يخيّل لي أنّ الحبّ مسّني بما مسّني،

سوفَ أسلّم وحيداً القرنِ قيادَ مصيري.

(وحيد القرن يقتل الشاب)

الشاب : (محتضراً، لافظاً آخر أنفاسه)

أيتها القاسية!

الموتُ يحتلُّني،

رنينٌ مُبهمٌ،

وكلُّ شيءٍ في نازٍ

أعزبي.

وسوفَ ألعنكِ إلى أبدِ الأبدينِ.

وعُودي إليَّ يا ليلي الرقيقة.

بيري : أيُّ شيءٍ حلَّ فيه،

هو ذا جسدٌ خامدٌ

عيناهُ خاويتان،

ودمهُ يسحُ

آه، هل هذا الذي تشهيتُ؟

هل اعتراني ظنُّ أنه سيموتُ؟

(العبد ينقل الجثة، وعلى حين غرة

يظهر بدوي على صهوة حصان)

البدوي : تشممتُ رائحة دمٍ بازغٍ توّاً،
فألهبْتُ، إلى هنا، ظهرَ حصاني.
آه، هل ثمة مصيرٌ عابسٌ لي هنا!
أنصارعُثمُ هنا،
من دوني؟

أينَ رعى العراكِ. يا صبيّة؟

بيري : أنتَ محاربٌ؟

البدوي : الحربُ ناموسي الوحيد.

بيري : (لنفسها):

علّه يليقُ بي،

فهو أبيّ جسر، وأكثرُ عتياً.

البدوي : ألسَ أنتِ سبيّة حرب؟

وإذا كانَ ذلكَ،

فأنتِ لي

وحتّي،

كأولِ فارسٍ يغنمك،

أنْ تكوني ملكَ يميني.

بيري : لست أهلاً لوقاحةٍ مع حسناء!

فليكن شريفاً زواجنا.

أيُّ فديةٍ تأتيني بها،

وأيُّ هديةٍ عرسٍ تهبني؟

البدوي : سأمنحكِ المجد،

فالمجدُ أحلى من الحياة.

حين تمرّين،

باسقةً بجبينكِ العالي،

بين الحشودِ الغزيرةٍ في الساعات،

تتحني لعبوركِ حتّى يمرّ الغبارُ الجبّاء.

أو حين يهدرُ بالزئيرِ أسدٌ ما

في هاويةِ الليالي العربيّة،

فترفعين لحظكِ على مرمى عينيه،

فيرتدُّ خافضاً وجهه،

وهو كسيرٌ.

وكأنّني قيصرٌ!

أينما شئتُ

أدقّ خيمتي في البوادي.

في واحاتِ الأُمراءِ الجوالينَ،
أو على صهواتِ الجبالِ المتوحّشةِ.
والبدو الأشدّاءُ يمرّونَ بي،
والمحاريونَ،
بِمَنْ تَتَشَدَّقُ بِغَدَاذُ
ويمرّ الجنّ الرهيّبونَ بي
وسيفي يرتوي من دمهّم،
وسيفي يثملُ بالنشوةِ.

بيري : وإذا جاءك سيّدُ الملائكةِ الآنَ
من أجلي

فما أنتَ فاعلٌ للدّودِ عتّا؟

البدوي : هو أيضاً، أجنّدلُهُ،

فيغرقُ في دمه

(يظهر إسكندر)

إسكندر : الفارسُ المعتدّ مثلكَ أشبه ببيغاءٍ

كنتُ منكَ أشدّ عتياً، لكنني

لا حولَ لي بعدَ أنْ أنهضَ بعينيّ،

هذا الذي سواه عزرائيلُ بي.

بيري : إنّي يداهمني الخوف!

البدوي : مَنْ أنتَ، أيّها الظلّ؟

إسكندر : إسكندر .

هكذا أسمّى في بلادك،

وتعرف عن إسكندر قبائلُ الغربِ .

أنا الذي أُعطيْتُ قبراً هادئاً،

وانتصاراً مأساوياً .

لكنّ تبجّحك الأجوفَ أقلقَ نومي الميّت .

فلتأتِ،

وانظرْ

كيفَ يصرّعُ المحاربونَ القدامى الوضيعينَ .

البدويّ : سأرى، وأريكَ

كيف يموتُ الموتى ميّتَهُمُ الثانيةَ .

(يتصارعان، يُصرعُ البدويّ) .

بيري : أنتَ إذن، الأوّل، على هذه الأرضِ .

إسكندر : أنا الموهوبُ للعثماتِ،

الأخيرُ،

مثله الآن.

كلبٌ حيٌّ في الوحلِ،

ثقي،

نحنُ الاثنانِ جديرانِ بهذا...

(يخرج، ويحمل الجثة)

بيري : توأً كان شمسَ اشتهاٍ لاهبَةً

والآنُ يُرفعُ جثَّةً هامدةً

أحقاً أنا نذيرٌ للمصائبِ

طرتُ إلى هذه الأرضِ؟

(تظهر طريدة صيد، ترمح صقورٌ، تتقاذف

فُهودٌ، يدخل الخليفة وبصحبته منجم)

الخليفة : ألسِ أنتِ البجعة،

نفسها التي هرعتْ خلفها صقوري،

ألسِ أنتِ التي تعقبُتكِ قطعانُ النمرِ الهائجةُ

كأيلةٍ جافلةٍ، بلا رحمةٍ؟

إنك أبهى من الأيائلِ الهائمةِ،

والبجعاتِ الوادعاتِ!

شعركِ الذي تلوَّى

ينسابُ منثوراً تحتَ أمواجِ سوداءٍ متهاديةٍ.

المنجم : آه، بيـري.

كوكبٌ مطيعٌ لي كَشَفَ لي عَنكَ.

لكنُ،

قَفي،

يا بنةَ سُلالةِ محمَّد!

فالخليفةُ نفسه يكَلِّمُكَ الآنَ.

بيري : (للخليفة)

هل أنتَ أسمى الذينَ على هذه الأرضِ؟

الخليفة : يا لَوْنُ يا قوتةَ.

ليسَ في وُسعي أنُ أكونَ غيرَ هذا.

وبعدَ هذا، مَنْ عليها أعلى من السيِّدِ،

يُحضرونَ رباطَ حذائيَ الحريريِّ.

المنجم : والنجومُ أيضاً

تَرى كما لم تَرَ مِنْ قَبْلُ،

أنَّ خليفتنا شمسُ هذا الكونِ.

الخليفة : منجمي الطيبُ هذا

يُداهنُّني لمكرمةٍ أُجازي

لكنّ بريق خنمي يكتبُ الموت،
أو يهبُ النصرَ.

وليس لأحدٍ مثل هذا الغنى،
والحِسانِ،

والرجالِ الأشداءِ،
كالذي في حوزتي.

وأنتِ!

يا توعمَ الياقوتِ،

سأحبّك وحدك،

وسأنسى ابنةَ عمّي،

والديوانِ،

ورحلاتِ الصيدِ،

والغزواتِ.

ومعاً سوف نُصغي لنسائمِ الجبالِ

من شرفاتنا الحجريةِ العاليةِ.

ونتأملُ المدينةَ

مُدعنةً لنا،

والعالمَ الذي يحيا من أجلنا.

بيري : لم تعد بي طاقةً،

فأكابد خَطْباً لموتٍ جديد،

لنْ أودي بعُمرِ الخليفةِ.

الخليفة : ما الذي قلته، يا بنّة الأمنيات؟

بيري : سأدعُن للحبِّ، وأحبّ.

(يظهر وحيد القرن)

المنجم : أيتها النجوم! أرتجّ من الخوفِ!

الخليفة : ما هذا؟

بيري : أغرب، أيها الوحشُ الغريبُ،

ولا تمسه بضُرّ.

(وحيد القرن ينحني أمام حسان الخليفة)

المنجم : إن مُهَرَّ الخليفة من سلالةِ فرسٍ محمّد

الخليفة : هبيني، أيتها الرقيقةُ، شفتيكِ

فمكِ الطازجُ وهاجّ مثلَ جورِيّ شيراز

امنحيني يديكِ البيضاءوين كماعزِ ذُرا جبالِ بامير

المُلتحياتِ بالثلجِ.

وماذا بعد؟

ياقوتة زرقاء غضة،
كاملة الأوصاف، تتلأأ في الخاتم.

بيري : اصمت،

خاتمي هو الموت الزؤام
لا تتفرسه، غص طرفك
درويش أهداه لي، اليوم، هامساً:
طوّقي به

إصبع من ترقين له.

وإذا لم يكن أهلاً لذاك،

فهذا سوف يعني

أنّ ظلّاً آخر سوف يعوي في الجحيم.

الخليفة : ضعيه في إصبعي.

بيري : أتوسّل إليك،

ما الذي سوف يحدث إذا متّ؟

المنجم : أيتها الكواكب!

الخليفة : إنني أمرك الآن.

بيري: أيمن أن يكون العجوز قد أتى بأمر كذب.

(تعطي الخليفة الخاتم، فيسقط صريعاً)

وهو أيضاً، يا إلهي، هو أيضاً

في العتمة السرمديّة.

انهض، يجبُ عليكِ، إني أريد..

المنجم : لعلّي أوهبُ من وريثه عطيةً لائقة.

(يسحب الجثة)

بيري : جئتُ على هذه الأرضِ

كي يأسرَ الحبُّ الدنيويُّ روعي

لكنّه الموت،

وحيثما حللتُ،

يتريصُّ بي كضبَعٍ غَدُورٍ.

الأمْلُ المشتهى،

والحلمُ باللذّة،

سرابٌ.

تلاشى.

كلّ شيءٍ مضى.

أواه، هل حقاً أنا جديرةٌ بمغفرةٍ

عمّا اقترفتُ من الضّرّ،

بالإيابِ إلى رياضِ الله،
دون أن أدّعي، محمّرةً الوجهِ، قولاً كذباً.

الدرويش : (داخلاً)

انهضي،

واتبعيني دون خوفٍ

وستفهمين كلَّ شيءٍ،

سوفَ تجدين كلَّ شيءٍ.

اللوحة الثانية

شارع بغدادى، فى خافية المنصة شرفة.

تدخل بييرى، والدرويش

بييرى : هَدْنِي كَلَّ هَذَا التَّعَبِ،

يا دَلِيلِي القاسي!

أليست هذه خاتمة الرحلة؟

ليس، بقدمي المَجْرَحَتَيْنِ ، أي صبرٍ

للسيرِ بي.

الدرويش : أنتِ، المرتجّةُ في حضرةِ خطاياكِ،

تشهيتِ كَفَّارَةَ.

فكلُّ أمرٍ لكِ،

أيتها السيدة،

عبدكِ رهنٌ بأدائه.

أيتها المسكينةُ!

سأمنحكِ لأعدائكِ العُتاةِ القهَّارينِ،

فريسةً لخطوبهم

وجراحاتهم.

رهينةً للألم المرّ، والعارِ الشنيعِ

(تحضر امرأة عجوز، وقاضي)

العجوز : مرحباً بك أيها القاضي الطيب!

القاضي : وبك مرحباً.

العجوز : يشيعون: عما قليل،

سوفَ يحلُّ بيغداد السندباد الأشدُّ بهاءً

وفي حوزتهِ منّا قاربِ ذهبيّ،

لم تُدركِ الدنيا مثلها

القاضي : حقاً.

لا بدّ سيأتي للقاضي بهديّة

العجوز : وأنا سأذهبُ للوليمةِ

الدرويش : (للعجوز)

يا سيّدي!

لقد حطّ الكربُ،

كطائرٍ مُفترسٍ،

على برّيقِ شعركِ المشتعلِ بالشيبِ.

العجوز : فيمَ الأمر؟

الدرويش : ابنك الوديعُ، الجميلُ..

العجوز : هل أَلْفَوْهُ، ثَانِيَةً، بينَ الحريمِ،

هل عاثُوا به ضَرْباً؟

يا لغبطتي!

كَانَ يَهْزُؤُ منَ الجميعِ.

الدرويش : يا سيدتي. لقد قضي

العجوز : لا بد أنك مازحٌ.

لا شك يُجَافِي الصدقُ ما نطقتَ؟

الدرويش : وحشٌ صحراويٌّ استباحهُ

في وجهته إلى بغدادَ،

فلَمْ يجدَ له نصيراً مُنْقِذاً.

العجوز : والقافلة؟

الدرويش : اقتادها خادِمُهُ الأَمِينُ، الحاذقُ

إلى المدينةِ.

العجوز : والجَمالُ، بِتَمَامِها؟

الدرويش : أَجَلْ. وبلحمِها وشحمِها

العجوز : الحمدُ...

لا... لا. آه، يا هاوية الشرِّ السحيقة!

وَلَدِي. كم كَانَ يَحِبُّ الفُسْتُقَ،

والجَواري الحسان!

ألم تَأْتِي بِقَمِيصِهِ،

وَحُصْلَةَ عَشْبٍ مِنَ الصَّحراءِ تِلْكَ؟

القاضي : لا تجاري،

بحقِّ الربِّ،

بهذا البكاءِ الصارخِ،

وتفكري

القافلةُ على حالِها،

وأنتِ حيَّةٌ لا تزالينَ،

ترزقينَ.

العجوز : أيُّها القاضي الطيب!

لقدِ اتَّخَذْتُ الحِكمةَ من خِصَالِكَ،

لكنْ

كيفِ أحيَا مُستوحدةً، مستوحشةً

وأنا التي في ريعانِ ربيعِي الثالثِ والأربعينِ .
إن زوجي معتلٌّ،
ويكادُ لا ينصبُ طولَهُ،
وكهلاً، مثلُ الزمانِ، جازنا
بارزةً ضلوعُ زوجي،
وجاري مترهلاً ككيسِ شوفانٍ محشوٍّ بالدهونِ .
ولو لم تكنِ أنتِ،
يا قاضيَ الكريمِ!
وأنتِ القويِّ، الصلبُ كالجوزِ .

القاضي : (متراجعاً):

أوه... لا... لا،

إني تكبّدتُ أعباءَ شتّى

العجوز : يا لأنفكِ الأبيِّ يعبقُ كالوردِ!

القاضي : (متراجعاً أكثر):

أنفي على هيئةِ أنوفِ الآخرينِ .

العجوز : ألسْتُ على حُسنٍ يُرضيكِ...؟

القاضي : (متراجعاً): كنتِ ذاتَ وقتٍ .

العجوز : ونظراتي ألا تشتعلُ الآنَ فيكِ!

القاضي : (متراجعاً أيضاً)

لله دُرُكٌ

العجوز : أيها القاضي، يا قاضي!

أنا على ثروةٍ فائقةٍ.

القاضي: (يتوقف)

نُبِّمُ الحديث، إذن، فيما بعدُ.

عمّا قليلٍ.

الدرويش : يا ابنة العار!

تذكري قتيأكِ.

فالتأُرُ المقدّسُ، الآن، يناديكِ.

(مشيراً إلى بيدي)

أمعني في هذه البنتِ،

إنّها البنتُ التي ائتمَرَ الوحشُ بها.

العجوز : كيفَ؟

وحطّت رحالها الآنَ في بغدادَ

ألا يأخذها الخوفُ من أحدٍ من الكائناتِ؟

اقبض عليها، أيها الطيّب،

إنّها قاتلةُ ابني.

القاضي : أقسمُ بلحيتي،

سوفَ تتألُّ ربيبةُ الشرِّ جزيلَ الجزاءِ

خمسمةً وثلاثَ جلداتٍ بالعصا.

(لنفسه في جهةٍ أخرى)

وليلةً، قبلَ الشَّقِّ، في فراشي.

(يظهر شيخ)

الدرويش : اخلعْ عنك، أيها الشيخُ الجليلُ، عبوسَكَ القاسي

واحنُ عليَّ بنظرةٍ صاغيةٍ،

فسوفَ يدركُكَ النبأُ العظيمُ

قَتْلُ أخيكَ؟

الشيخ : بَمَ تهذُرُ يا نذيرَ الشؤمِ؟

إن أخي من عتاة البدو

الدرويش : طعنهُ - بعد عراقٍ دام -

عفريتُ رجيمٌ.

الشيخ : فليُبَلِّ بوباءٍ يسحلُّه،

ولكن. لا...

سأقتصُّ منه قبلَ ذلك.

الدرويش : أيها الشيخُ الجليلُ

ليس لأحدٍ أيّ بأسٍ عليه
حتّى العُتاةُ المكيئون
ليسَ بهم طاقةٌ أن يُسقطوه صريعاً.

الشيخ : مَنْ يكونُ؟

ومن أيّ سُلالةٍ ينحدرُ؟
أجِبي.

يكادُ الغضبُ المندلُعُ فيّ يُزهقُ نفسي.

الدرويش : هذه البنْتُ المُنصبَةُ قبالتك الآنَ

امتلكتُ أمرَ يديه.

الشيخ : يا للثأر! يا للدمِ الدم! وا أشباحَ الظلماتِ

أنا الأسدُ المحمومُ بالحقِّ،

أنا فيلٌ

ليسَ لعينيّ أن تتعما بالضوءِ

فقدَ أعميتنا بحقدٍ كتيحٍ.

الدرويش : هيَ ذي هناكَ

يقتادُها القاضي

الشيخ : القصاصُ لي وحدي،

فدعها إذنُ أيُّها الكلبُ.

القاضي : نحن في بغداد، يا صاح
ولسنا في مضاربِ قطاعِ الطُّرُقِ.

الشيخ : أنا شيخُ البَوادي،
أيها المترهّل بالدهنِ،

وليسَ بي جلدٌ على جدالكِ.

(يلطمُ القاضي، القاضي والعجوزُ يفرّان)

ما أنا فاعلٌ بها؟

لا أقدِرُ على قتلِها،

فليسَ على السيوفِ أن تُسلَّ على أعناقِ الصبايا الساحراتِ.

الدرويش : أيّها الشيخُ الوقورُ!

يا ملجأَ الموطوئينَ بالمنايا

هلاً أذنتَ ببعضِ كلامِ لي.

الشيخ : أنتِ يا بنتُ!

إنّها لا تُعيرُ كلامي شأنًا.

الأمرُ واضحٌ إذن.

وباللفظِ القصيِّ، كما الحبُّ، ترمقُ..

رُدِّي.

هل مسّها خرسٌ؟

يا لنداوة حسنِها الخلاق!
لكنّ دماً ينتصبُ الآنَ بيننا
إنّ بي حبّاً لها.
بي غضبٌ عليها.
وعارٌ فتّاكُ يجمّدي.

الدرويش : مولاي!

(يظهر قرصان)

الشيخ : مَنْ ترى عيناى؟

القرصانُ عليّ؟

إذنُ مني على عجلٍ،

أيّها الصديقُ العتيقُ

سلامٌ عليك

اشترِ سببتي هذه.

القرصان : أسواقنا عاجّةٌ بالجواري، لكنني

سأعطي بها مئةَ درهمٍ.

الشيخ : أربعمئة.

وهي في الغالبِ من نسبِ عريقٍ.

القرصان : آه، آه. إنّما بأقلِّ قليلٍ تُقاسُ الأنسابُ

أنسابُ العبيدِ أو الفقراءِ .
لَمْ أَعُدِ السِّنْدِبَادَ، ذَاكَ مَلِيكَ الْغِنَى
حَتَّى أَعُودَ إِلَى هُنَا،
أَنَا شَدِيدُ الْفَقْرِ .

الشيخ : ولكن، بِحَقِّ الْأَخْوَةِ،
خِذْهَا، إِذْنُ، بِثَلَاثِمِئَةٍ

القرصان : مِئَتَانِ فَحَسَبِ . حَسَنًا .

الشيخ : آه يَا لَبْرِيقِ ثَدْيِهَا الْأَبْيَضِينَ الْحَلِيبِيِّينَ
يَا لِقَوَامِ وَرَكِيهَا الْفَتَيِّينَ !

القرصان : تَمَلَّكْتُ عَلَى سَفِينِ الْإِيطَالِيِّينَ مِثْلَهَا،
وَمَنْ لَا شَبِيهَةَ لَهَا .

الشيخ : لَكِنَّكَ قَاتَلْتَ هُنَاكَ لِهَذَا .

القرصان : مَا الْقِتَالُ لِي ؟

هُدُوءُ رَوْحِ

ثُمَّ كُلِّ شَيْءٍ هَبَّةٌ .

الشيخ : يَا أَرْوَاحَ الظُّلْمَاتِ !

هَآكِ إِيَّاهَا بِمِثَّتَيْنِ .

لَا ضَيْرَ . الْأَمْرُ سَوَاءٌ، سَوَاءٌ .

(ظهور ابن الخليفة على الشرفة)

الدرويش : يا أمير المؤمنين!

أنحني في حضرة قدميك العاليتين

ابن الخليفة: أيها التقيّ، الجليل!

لست إماماً يُقتدى،

ما دمت جوّالاً بين المدائن.

الدرويش : يا لعذابِ رُوحِي!

ابن الخليفة: قلّ لي بفيضِ صدقِ

هل سَعُرَ الطحينِ في السوقِ أكثرَ مما ينبغي؟

أو أنّ أصحابَ قائمِ مقامِ المدينةِ غرسُوا على رأسِهِ قرنينِ؟

الدرويش : هل، سُموكَ، يسخرُ منّي؟

ابن الخليفة: أو أنّكَ عزمتَ على عقدِ نكاحِ،

وأنتَ على شفا القبرِ،

ولم تُلَقَ عذراءَ لائقَةَ الحسنِ بك؟

الدرويش : الخليفةُ، أبوك...

ابن الخليفة: أدري، وأهدرتُ ثلثَ الخزينةِ

كي أتقصي هذه الأنباء.

الدرويش : وأتَمَّ قولي

حتَّى على الأفوياء العتيدين أيضاً
أن يتحصَّنوا بالحدَر، الحدَر.

ابن الخليفة: هؤلاء المنجمون،

المهرجون،

الرهبان،

والحكام

ببطونهم المدلوقة،

كم هم شرهون،

وحمقى مملون.

الدرويش : فَمَنْ القاتلُ؟

ابن الخليفة: أليس الأمر على حدِّ سواء؟

إنَّه الخاتم.

الدرويش : كم من الخطايا تأتي بها بقولك!

مُسيِّراً، لا غير، كان الخاتم.

ها هي مالكة أمره.

ابن الخليفة: معها شيخٌ وقورٌ،

وبحارٍ رفيع.

هي، ربما، جاريةٌ لهُما.
أجلدكَ تَنشُدُ،
أيها الوضيع،
أم وصماً بعارٍ؟
الدرويش : قاطعُ الطريقِ،
هذا البدويّ العجوزُ،
يقايضُ القرصانَ على شرائها.
فيما السلطَةُ العصماءُ،
وحقّ القصاصِ
لكَ وحدكَ أيُّها الخليفةُ.
ابن الخليفة: حسناً، لكنّ...

الغضبُ الآنَ يكادُ يفتكُ بي،
ويُشيعونَ في بغدادَ، أيضاً،
أنِّي على غضبٍ غلابِ،
فسندباد صديقي، لم يعدْ بعدُ.
أنتم، مَنْ هناك؟!
إليَّ أيُّها المخصيَّونَ
أحضروا البنتَ،

ولا تعينوا فيها محضَ ضُرِّ
ومَنَ معها، فللجحيم.

(خَصِيَّانِ يَهْرُولِ مِنَ الشَّرْفَةِ)

القرصان : كيف هذا،

الحراس؟

فلنفرّ، على عجلٍ، أيّها الشيخُ
فمنذُ يومين،

وعلى مقربة من القصر هذا،
حَطَّمْتُ قارياً.

الشيخ : هاتِ يدِكَ، يا صاح

وأنا، بالأمس، قتلْتُ تاجراً.

(يَهْرِيانِ، الحارسانِ يَقودانِ بيري)

الدرويش : كيفَ أعودُ إلى عتباتِ السماءِ

وأيّ الكلامِ أقولُ لربِّ السمواتِ العُلا؟

إذا ما أمانتُه لديّ، بيري، قُتلتُ،

وماتتُ ميتةً فاضحةً.

(مُخاطباً ابنَ الخليفة)

ما أنتَ فاعلٌ بها.

قُلْ

ألن تجورَ عليها؟

ابن الخليفة: سوف أكسو جيدها بقلائد اللؤلؤ الوردِي،

وأمنحها حجراً جاء به النَّسْرُ

من الماسِ الذي يرصع الأقمار،

فمن أجلها

صرتُ الخليفةَ،

وسيدَّ البلادِ الوحيدِ.

الدرويش : كم أنتَ طيبٌ!

ابن الخليفة: وسأعطي، بين العوام، مثلاً

سيكون طيباً حُكْمِي،

وعادلاً

ولهذا سوف يُلقى بها، حالاً، في الماءِ.

وهذا انتقامُ الخليفةِ.

(يختفي، يظهر سندباد)

سندباد : مرَّ عامٌ،

وأنا هاجرٌ وطني

أمخزُ البحارَ بأغنيّتي،
ومركبي طافحُ بالياقوتِ،
وعطايا قيصرٍ «سيلانَ».
كنتُ في «نبيال» أسمى منَ عليها.
أنا قاتلُ شيخِ البحرِ
وعلى طائرِ المنايا قبضتُ يدي الحاذقةُ في العتمةِ.
وهناكُ،
خلفَ الغيومِ،
وفي جوفِ المحيطِ العميقِ
تاجرتُ.
كان خلقُ غزيرونَ بأذيالِ الأسماكِ
يركعونَ لي، كما لإلهِ.
وفي أقصى دائرةِ القطبِ،
في مغارةِ الجنِّ المتجمّدةِ،
كانَ الملعونُ - إبليسُ صديقي.
وكانت جنيّةً رهيبّةً زوجاً لي، طائعةً.
يا لحجارةِ بغدادَ الشهباءِ!
يا لروائحِ الثومِ اللذيذةِ!

ها شفتايَ تضحكانِ،
وقلبي فائضٌ بالغبطةِ.
وكفّي، على الجميع، بيضاء،
معطاءةً.

(يُخرج العبدان بييري، يظهر المنادي...)

المنادي : سلامٌ عليكم أهلَ بغدادَ
أخيراً، رجع سندبادُ!
فالتّموا حولَ ولائمِهِ، حيثُ الجودُ
من جديد، في قصرِهِ الجديد.

(يمضي)

العبد الخصيّ الأول: دع الفتاة، إذن، ولنمضِ يا صاح.
العبد الخصيّ الثاني: لن أذهب،
أخشى عليّ من الخليفة.

العبد الخصيّ الأول: ورؤوسُ الطيورِ المطهّرةِ بالطّماطم!
والباذنجانُ، والرّزّ المحلّى بالعسل!

(يجريان، وعلى عجل يدخل القاضي والعجوز).

القاضي : ها. يرشّ، بحفنتِهِ، الياقوت
فوقَ الحشدِ الغفيرِ حولَهُ.

العجوز : واقتادَ معه قطيعاً مِنْ مَرَدَةٍ،

أحدُهُمْ آيَةٌ فِي الْقَبْحِ.

(يهرول القاضي والعجوز

يظهر الشيخ والقرصان...)

القرصان : أيّم، أيضاً، شطرَ سندباد؟

ماذا أعدّ؟

أيها الحرّاس، أيّها القاضي!

الشيخ : لا يهّم،

تعال نحتُ إليه خُطانا.

إنّهم، هناك، يتقاسمونَ الجوّاري

يحتسّونَ النييدَ المعتقَ.

(يذهبان. يظهر ابن الخليفة والمنجم)

ابن الخليفة: إلى سندباد؟

آه. أيّمكُن أن تُوزنَ أساطيرُهُ بثرثراتك؟

المنجم : سأفسحُ لعقلي أن يزهو بشيءٍ من الخمرِ.

(بمران)

العبدُ الخصيُّ الثاني: لعلّي أنا، أيضاً، سوفَ أمضي

(بمضي)

الدرويش : لقد أسرفوا في نسيانِ الثَّارِ .

حتَّى على شرٍّ لا يثبُتونَ .

قولي إذنْ .

أيّ فِدِيَةٍ تجدينَ، بيري، على هذه الأرضِ؟

بيري : الكأبةُ في الأرضِ تمضي عجلي،

تتلاشى كدخانٍ

أمّا الأمواتُ فيرزحونَ،

إلى أبدٍ سرمدِيٍّ،

تحتِ حجابِ حُفرتِهِمُ الكتيمَةِ .

اللوحة الثالثة:

طيور كبيرة... حديقة حافظ... صباح...

أكواب من الجوري والياسمين).

حافظ

: الحَـضِرُ العَظِيم، أبو الرِياضِ

أنتَ في ثيابِكَ السَندِسيَّةِ

مثلُ أوراقِ الأشجارِ الخُضراءِ.

حارسُ نبضِ الينابيعِ،

والزهورِ والأعشابِ على جنباتِ المنحدراتِ العالِيَةِ.

على بياضِ السَـمَواتِ الغائِـماتِ

فردتِ رِداءَكَ النورانيَّ.

ها هي الشمس... أيتها الشمس

قضى اللهُ أن تُسَـعِـدي حافِظاً.

فإلَيَّ

بسلاسلِ المُرْجانِ،

وبالجلنارِ،

بألِقِ الوميضِ،

وروح المسك .

إنني سأغني

ولترددي معي يا طيور

(يعني)

أجنحة الدراج،

قرص الشمس الذهبي المندلج بالوهج

أوقد حريقاً في وهاد السماوات .

الطيور : ذو الحكمة يحيا في ظلال شجيرات الدلب،

ويحنو بالعطف على الفتیان الجذلين،

رافعاً نخبة العالی .

حافظ : القیصر الأرجواني، الذهبي

مكتمل الوصف في ثویجات الخزامی

الطيور : رافعاً نخبة العالی،

مُصغياً لرجع رنين الكؤوس .

حافظ : مكتمل الوصف في ثویجات الخزامی

قربئه، وذروتئه .

الطيور : مُصغياً لرجع رنين الكؤوس،

يعني، ذو الحكمة، ويروي...

حافظ : قَرِينُهُ، وَذَرَوْتُهُ.

يُسَوِّرُ رَوْحَهُ بِالنَّسِيمِ الشَّفِيفِ.

الطيور : يَغْتِي، ذُو الْحِكْمَةِ، وَيُرْوِي
يُضْحِكُ،

وَيَسْرِفُ فِي الْإِصْغَاءِ لِأَتَةِ الْعُودِ.

حافظ : يَسَوِّرُ رَوْحَهُ بِالنَّسِيمِ الشَّفِيفِ

وَالشَّمْسُ تَبْسِطُ فَيْضَ أَشْعَتِهَا.

الطيور : يَضْحَكُ،

وَيَسْرِفُ فِي الْإِصْغَاءِ لِأَتَةِ الْعُودِ.

وَالْعِذْرَاءُ عَارِيَةٌ قُبَالَتَهُ،

حافظ : وَالشَّمْسُ تَبْسِطُ فَيْضَ أَشْعَتِهَا

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

الطيور : الْعِذْرَاءُ عَارِيَةٌ قُبَالَتَهُ،

وَعَامِرٌ قَلْبُهُ بِالْفَرَجِ.

حافظ : عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

يَأْتِي الْوَهْجُ الْمَطَهَّرُ.

الطيور : عَامِرٌ قَلْبُهُ بِالْفَرَجِ

يَا قِرْصَ الشَّمْسِ الْوَهَّاجَ

كأجنحة الدراج،

(تدخل بيبي والدرويش)

بيبي : أليست هي هذه

جنت الأرواح الطاهرات؟

رياض الرب المشتهاة؟

ومن ذا الزوج الموشح بالسمو

المغني، هكذا، متجلياً بالسحر؟

كيف تضافرت خصلاته المتجدات الفاحمات

بإكليل الورد والجوري القرمزي؟

الدرويش : إنه نحلة شيراز، الأمير حافظ

ذوابة الفتوة والحسن.

بيبي : آه، يا أيها الدرويش،

فلنفر على عجلٍ

فما جدوى لقاء جذلٍ

ومينات ثلاث تجثم على كتفي الموهنين

ووجوه ثلاثة ممسوخة

تكشر بي، من لحودها، بضحكات الصفاء؟

الدرويش : الله ولي ابن السبيل.

حافظ (ملفتاً):

ادخلا،

وأمكنا.

ما بك، يا بنتُ، مأخوذةٌ بالبكاء؟

علامَ تبيكين؟

وليسَ الدمعُ لزاماً للدمعِ في جنانِ حافظ

وأنتِ تستحمينَ بالشعاعِ كزهورِ ياسمينِ الحدائقِ.

أنا درويش بنفسي أيضاً

إنما، ومنذُ وقتِ دائرٍ، يَممتُ رُوحِي جهةً أُخرى

فعطايَايَ للربِّ النبيذُ المعتقُ

وصلاتي - أناشيدُ متعتي الفائضة.

الدرويش : آه، أيها الأمير حافظ، يا لبَّ العبادةِ

بيري التي على مقربةٍ من عينيكَ

هبطتُ من الجنةِ إلينا

لتغدو زوجَ أفضلنا

لكنَّ ثلاثةً من الفتيةِ الأقوياءِ،

من أجلها

دُفنوا تحتَ الأديم.

وفي قلبها الندم المكتوم، عليهم،
واللوعة الخرساء
ينشبان أظافرهما.
إنّ بي ثقة،
يا صوت المعجزات،
أنتك وحدك أهل لغوثها
وإذا لم تنجدها،
فلتبتلغني العنمات.

حافظ

: مَنْ كَانَ الْأَوَّلُ فِيهِمْ،

الَّذِي جَرَّهُ الْمَوْتُ إِلَى سِرَادِيهِ.

بيري

: وَسِيمًا كَانَ، بِصَوْتِ نَسْرِ

وَوَجْهِ أَرْقٍ مِنْ زَنَابِقِ الْبِرَارِيِّ.

حافظ

: (يَقْرَأُ تَعْوِيذَةً)

اعصفي، يا أجنحة الشعاع، بزجاج الليالي

اضربي، اضربي... وانكسر يا زجاج

وتحوّل إلى شظايا

وانقشعي يا لألاءة الماس

والياقوت الأحمر والأزرق

أنا الفينيقُ،
أنا طائرُ المنايا.
وأنا الألكانوست^(١) المُتنبئُ
الصارخُ في البرية:
ردّ الشاب - الورد
وهبني، أيها الليلُ، فريستك.
(يظهر الشاب مع فتاةٍ مجنحةٍ هي العنقاء)
الشاب : ليس لأحدٍ أن يفرّقنا،
أنا والعنقاء - عذراء الكمال
(مخاطباً حافظ)
عبثاً،
أنت اقتلعتَ روعي من يديّ النعيم
الناصعتينِ كالثلج.
حافظ : أئمةٌ نعيمٍ في الظلماتِ؟
الشاب : يا للأضواءِ المتوهجةِ هناك،
لدوائرِ الأشعةِ والوهجِ المُستعرِ

(١) الألكانوست: طائر خرافي بوجه بشري يعرف بالغيب. [المترجم].

لا تدركُهُ مخيَّلاتُ الشعراءِ .

حافظ : ربّما أنتَ، الآنَ، في جنةٍ؟

الشاب : لا تُحصي رياضُ الرّبِّ،

وروحِي في غبطةٍ أبديةٍ

في العالمِ ذاكِ .

حافظ : (مشيراً إلى بيّري)

هل أنتِ نادمةٌ عليه؟

الشاب : أيمكنني ألا أصيبك بالذهولِ؟

حتى الزهورُ لا تتشبهُ بمليكتي الجديدة .

العنقاءُ،

عذراءُ المكنوناتِ!

دعي الغرباءَ يروونَ رقصكِ الأسرَ

في شعاعِ الياقوتِ القرمزيِّ .

(العنقاءُ ترقصُ)

بيّري : أتسامحني أنتِ؟

الشاب : علامَ؟

ألأنَّ عالمي، بأجملِ ما أُبدِعَ، توهّجَ؟

أم لأنَّ أحداً على هذه الأرضِ

لَمْ يَلْقَ مِثْلَكَ مِنْ قَبْلُ؟
إِنِّي عَلَى رَجَاءٍ يَتِيمٍ:
اطْلُبِي، بَوْدَاعَةٍ، بَدَلًا،
كِي يُطَلِّقَنِي حَافِظٌ
فَأَعُودَ إِلَى عَالِمِ النَّارِ الْبَيْضَاءِ.

بيري : دَعُهُ.

حافظ : امضِي.

(الشاب والعنقاء يغادران)

وحده.

ورأيتِ بنفسكِ: كم هو مُبْتَهَجٌ!

بيري : واحسرتاه!

البدويّ الشرسُ، الفتاكُ في النارِ
يصطلي في عذاباتِ السعيرِ.

حافظ : (يقرأ تعويذة)

اهبطي

يا إرادتي العصيّة،

كرصاصٍ مصهورٍ

إلى عالمِ نسيئتهُ مشيئةُ البارئِ،

فوقِ الحقولِ الليليةِ المتجمّدةِ.
اعبريه،
واذهبي هناك،
حيثُ استلقى الوادي،
وأحضري إليّ البدويّ المحمومَ.
(يظهر البدوي)

البدوي : يكاد يطفّ برثتي الاختناق،

والوهنُ الكبيرُ ينخزني،
من وطأةِ الهواءِ الأرضيِّ،
ناموسُ العالمِ الآخرِ
كلمةٌ سحريةٌ كُسرَتْ.

حافظ : مِنْ أَيْنَ جِئْتَ،

يا رعبَ الظلالِ؟

البدوي : أنا الضالُّ في الهاويةِ الظلماءِ

أصرعُ الأسودَ المُقرّنةَ ،
والأفاعيَ المجنّحةَ
والصقورَ الحديديّةَ.

إنها تحطُّ، خارقةً، مرعبةً، من علِّ

فيسُحُّ دمها الأخضرُ
المُسْكِرُ أكثرَ من ذاكَ القاني.

حافظ : قُلْ، أحزاني همُ الموتى؟
فمتاعُ الدنيا زينةٌ ما نحبُّ جميعاً.

البدوي : المقاتلونَ الأشداءُ
الغاضبونَ عليّ، بغیظِ كتيّم،
يجوبونَ ذاكَ الظلامَ العميقَ هناكَ.
ورأيتُ في غياهبه تيمورَ الأعرجِ،
ونمرودَ في جلدِ النمرِ،
ومسرور^(٢) صنوقَ الملوكِ،
وريتشاردَ قلبَ الأسدِ،
فأبيّ صخورٍ أخرى أتخيّرُ؟
إنّ مأواي هذا عزيزٌ عليّ،
واسكندرَ العظيمُ معي هناكَ،
سيّدي،
والمنتصرُ الأكبرُ دوماً.

(٢) مسرور: سيف أبي جعفر المنصور. (المترجم).

بيري : وأنا؟

قل لي، إنن، ما أنا فاعلة؟

هل أشفى من ألم الكزب؟

البدوي : لك، كما شئت أن تعيشي، لكن

على من يدبُّ على هذه الأرضِ

أن يروي مآثري.

طيبةً كانت حياتي،

والموتُ مضيءٌ وجليلٌ،

ولكنني

أبتغي أن ينشر مجدي على كلِّ أرضٍ

مثل راياتِ عُمر^(٣)

(يختفي)

حافظ : أترين يا بيري؟

هو أيضاً متخماً بالسعادةِ

ذلك أنه لن يهجرَ القبرَ .

بيري : والخليفةُ المباركُ ثالثهم؟

ذاك

(٣) عُمر: لعل المراد منه الخليفة «عمر بن الخطاب رضي الله عنه». [المترجم].

فاقدُ المُلكِ،

والعيشِ الرغيدِ.

حافظ (يقراً تعويذة):

أيتها الكلماتُ النابضاتُ بفحوى الحياةِ

ارمحي إلى هناكَ

حيثُ في البدءِ كانتِ الكلمةُ.

لا أنْ تجري إلى باطنِ الأشياءِ،

لا أنْ تستقرِّي في الأعماقِ،

ولا أنْ تنتشري في المدى الرحبِ

بل اعتصمي بالسموِّ إلى أقصى الأعالي.

أنتِ.

أيتها القوَّة العتيقة اندفعي في مجرى القدرةِ الوليدةِ

وكما يحلِّقُ البرقُ على الأرزِّ

أو ينقضُّ عُقابٌ على آخرِ

دعي روحَ الخليفةِ

تهبطُ من جوفِ النجومِ الزرقاءِ

إلى الأرضِ.

(يظهر ملاك)

كيف؟ مَلَكُ الموت؟

بيري : أَيُّهَا المَقْدَسُ، أَخِي!!

حافظ : تَهَيَّئِي، إِذْنُ، لوداعِ شاعركِ الفَدَّ

أَيَّتِهَا الأَرْضُ

الملاك : لا لِقْبُضِ رُوحِكَ جِيءَ بِي

إِنَّمَا أَنَا بِشِيرٌ،

ورسولُ الحقِّ المَبِينِ.

أَنْتَ الهالِكُ اليَوْمَ

أَنْكَ تُحْضِرُ رُوحَ الخَلِيفَةِ.

ليسَ هُنَاكَ ما يَقْضُ هِدَايَتَهَا

فَعَيْنُ سَبِيلِ الفِرْدَوْسِ تَرُوي الفُؤَادَ

التَّنَزَّهُ عَنِ مَتَاعِ الدُّنْيَا.

والخَلِيفَةُ مَتَّكِيٌّ عَلَيَّ أَرِيكَتِيهِ،

هَانِيئاً، عَلَيَّ ظَهَرَ القَمَرُ،

وَيَتَنَفَّسُ رَائِحَةَ النُّجُومِ.

وَفِي الأَقْصَى السَّرْمَدِيِّ

يُظَلِّلُهُ الحَفِيفُ الوَادِعُ،

وَقَطْرُ النَّدَى المَطْمَئِنِّ.

وهناك

الفوز الذي لم تسمع به أذنٌ
يغوي روحه الهائمة في السمواتِ

وهناك

الإله أخفى الخليفة

تحت إصبع قدمه الرابعِ

لن تأخذه استغاثاتك،

ولن تأتي إليه.

إنني قد وهنتُ

فليدوّن مجلس الحكماءِ قولي.

وأنتِ،

أيتها الأختُ التي اكتست بلحمِ آدميِّ

اجعلي الشاعرَ الأرضيَّ يرددُ تلكَ الأغنياتِ،

لكي يتبصرَ أبناءُ آدمَ

كيفَ جازى الربُّ ابنَ سُلالةٍ محمدَ

(يختفي)

: كما يحنو شجرُ السروِ البشوشِ على الطيورِ الشريفةِ

بيري

أيها الأميرُ حافظُ

هدأت روعي .

لا بُدَّ أنك سوفَ تمرّن صوتي على الشدو،
ترشدني إلى أغنياتٍ جديدةٍ .

أسرّ ما يدعو للحزن
فيما الفرحُ أبداً يطغى بروعته .

حافظ : بعينين تتدلعان بالذؤابات،
أنا الموصول، بكلّ اللذات، في القلب .

رُحماك

بيري

أشفي عليّ

رافلاً بالغبطة كنتُ، والآن

موهنأً بالحزن صرتُ

(يعني)

مثل عقيقتين عيناك

بيري .

شفتاكِ قرمزيّتان كنفحةِ الجُنارِ

بيري

ليس للحسنِ فيكِ مثيلٌ

بيري

من الصينِ القديمةِ

حتّى مغاربِ الخلافةِ.

أنا - من على الأرضِ - الأوّلُ،

والأوّلُ في رياضِ عدنِ.

كنتِ، في وقتِ ما، على عشقيّ

بيري

لكنّكِ الآنَ شاحبةً صامتةً،

تشحيحنَ عنيّ.

أما عادَ قلبكِ ينبضُ بحبيّ

بيري؟

ألنّ تُجزّي حافظاً على الحكمةِ والشعرِ

بيري؟

معها الغبطةُ المُبتغاةُ،

النعيمُ المُرتجى

لا يُضاهي،

ودونها

كلّ الخساراتِ التي لا تنتهي.

لستُ على عوزٍ مُدفعٍ
أنا العاشقُ الأبدِيُّ،
بكلِّ القداساتِ،
سوفَ ألبِّي رجاءاتِ بييري
: (تغني)

بييري

لماذا كلَّ هذا الحزنِ
يطمر صوتَ حافظٍ الشادي؟
أم بالحكمةِ
تلكَ التي أتاهُ الربُّ
يتلو علينا حافظٌ؟
أيِّ الصبايا
لا تتملُّ من شهدِ قولكِ الحلو،
يا حافظُ
أنَّ أشحُبُ؟!
حينَ يغني حافظُ
راقاً على أوتارِ العودِ،
لا ضيرَ. فذاك لونُ الملائكةِ.
أنَّ أصمتَ؟!!

الصمتُ خجلُ الشفتين،
في حين تبقى نبضاتُ قلبي أعلى
من ضجيجِ البحارِ الهائجةِ.
لا أرنو إليك؟
يا حافظُ

هل تَعْمى الشمسُ
مثلَ أسرارِ اللغةِ المكنونةِ
أو ملكوتِ المعجزاتِ؟
وسطَ غبطةِ الروضِ المقدّسِ،
وكُزْبَةِ الأرضِ
آمنتُ

أن الساعةَ سوف تجلّ
يا حافظُ
وتمتلُّ أمتكُ الطيّعةُ بين يديك
فخذني تحتَ ظلكِ
يا حافظُ

الدرويش : قف.

لنْ أمتلّ في حضرةِ الربِّ

شقيّاً

سوفَ أمتحنك الآنَ

بوحيدِ القرنِ والخاتمِ

عندئذِ سترى بأَمِّ عيني

أنك الفذُّ،

لا شبيهَ لك اليومَ.

حافظ : ما هذا الضجيجُ الذي يقضُّ المضاجعَ،

على حينِ غرّةٍ،

جاءتْ به الطيورُ المبهجةُ؟

(يطيرُ طائر)

ما تبتغي،

يا زهرَ الرِّمانِ؟

الطائر : إيه

حافظ!

مُباركاً بنورِ الله،

وحيدُ القرنِ،

الذي فقدناه،

عادَ،

بعدَ غيابِ ثلاثةِ أيامٍ.

إِنَّهُ الْآنَ يَخْطُو نَاحِيَةَ الْعَنْبَةِ،

حَامِلاً عَلَى قَرْنِهِ الذَّهَبِيَّ

خَاتَمَ سَلِيمَانَ

الَّذِي كُنْتَ تَأْوِيهِ فِي مَخْدَعِكَ.

حافظ : ها . السعادةُ، ثانياً، تغمزني .

كم اشتقتُ إليه؟

دعهُ، لا يخشى مِنْ عِقَابٍ

فقد جاءَ بالخاتمِ الذي ضيَّعتُ ذاتَ وقتٍ .

الزمِ الهدأةَ،

عمَّا قليلٍ، سنقيمِ ولاءَ الاحتفالِ .

(مخاطباً الدرويش)

قلتَ، أيها الأبُّ، أَتُكَّ تنوي امتحاني؟

الدرويش : فُلْتُنْسَ قولي

أَقْبَلُ آثارَ قدميكَ

مودِّعاً .

(يخرج)

حافظ : (لبيري)

أَيْتَهَا الشَّبِيهَةُ بِالسَّبِيكَةِ الذَّهَبِيَّةِ

المصهورة في صخبِ المواقِدِ الفوارةِ،
وصدركِ البلّوريّ تحتَ الحجابِ الشفيفِ
أندى مِنْ بخارِ السواقي
التي تتحدّر من أعلى الجبالِ
وبريقِ عينيكِ يشعّ
فيزهقُ بالحبِّ الأرواحَ،
وعبقُ أنفاسكِ أشهى من زهرِ الناردِينِ.
: أنتِ الأشدُّ فتكاً

بيري

بجسدٍ ينتظركِ

منَ الفهودِ والنمورِ .

ومهيّبٌ أنتِ للشفاهِ الشاحبةِ .

كلّكِ،

كالسيفِ القاطعِ يبتزُّ .

أنتِ الذّوابَةُ،

الزهورِ اللّهّابَةُ .

فخذني يا حبيبي إليكِ .

خُذني

(تسدل الستارة)

نيقولاي غوميليوڤ

(١٨٨٦-١٩٢١)

- كاتب وشاعر وناقذ روسي.

- من أعماله:

- جعبة، ١٩٢٦م.

- عيال الله، ١٩١٨م.

- الخيمة، ١٩٢١م.

د. عبد الله عيسى

- مترجم فلسطيني، (١٩٦٤م - ...).

- شاعر وأكاديمي وصحفي.

- من أعماله:

- موتى يُعدّون الجنازة.

- رعاة السماء، رعاة الدفلى.

- مختارات من الشعر الروسي.

٢٠٢١م

كلمة الغلاف

مسرحية شعرية ذات طابع فلسفي، تعيد إلى الأذهان علاقات اجتماعية إنسانية ممتدة الجذور، موضوعها الرئيسي هو الحب العظيم. تستوحي أفكارها من الموروث الصوفي العربي الإسلامي. أخذت في البداية عنوان: «حكاية عربية في ثلاث لوحات». تعيد هذه المسرحية إلى الأذهان الروح الفلسفية بدفقات إنسانية درامية مرتبطة بطبيعة شخصيات النص ذات البعد الواحد، القادرة على التعبير عما يجول في خاطرها من توق إلى الخلاص. نأمل أن تبصر هذه المسرحية النور على خشبة مسرحنا الوطني، وأن تحقق المنفعة الثقافية للقارئ أيضاً.